الإمام علي (ع) وحقوق الإنسان

الدكتور روحي فغلالي

كلية الإلهيات ـ جامعة دوكوز أيلول

أزمير ـ تركيا

في العاشر من كانون الأول عام (١٩٤٨) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» المكوّن من ثلاثين مادة. وتهدف هذه الحقوق ببساطة إلى تأكيد حرية وكرامة الإنسان، وتحقيق العدالة والمساواة بين جميع الناس.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ثمة حقيقة لا تقبل الجدل بأن الإسلام سبق الأمم المتحدة بـ (١٤) قرناً، ليس فقط في إعلان هذه الحقوق الإنسانية والإصرار عليها، بل في التأكيد على المصدر الإلهي لها بشكل أوسع وأكثر عمقاً.

إن حقوق الإنسان في الإسلام يمكن إيجازها من خلال الأسس التالية:

أولاً ـ كرامة الإنسان وفقاً للآية القرآنية:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم . .﴾.

ثانياً ـ لا فرق بين إنسان وآخر في الكرامة والحقوق الأساسية، حيث يقول رسول الله محمد بن عبد الله (ص):

[لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى].

ثالثاً ـ وحدة العائلة البشرية، وإعلان الإسلام بأن أفضل الناس في نظرالله هم أنفعهم لعياله. ونجد هذا المعنى في كلام رسول الله(ص):

[الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله].

رابعاً ـ الدعوة إلى التعارف والتعاون من أجل المصلحة العامة، بالإضافة إلى القيام بكل أنواع الأعمال الصالحة تجاه الكائنات البشرية بصرف النظر عن جنسيتهم أو دينهم.

خامساً ـ الحرية الدينية لكل فرد، وتحريم أي إكراه في هذا المجال.

سادساً ـ تحريم الاعتداء على ملكية أو حياة أي إنسان.

سابعاً ـ فرض التعليم على كل مسلم، من أجل التخلص من الجهل.

وبالتصريح بأن [طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة] فإن رسول الله(ص) جعل هذا واجباً على كل مسلم، رجلاً كان أم امرأة. كما أفسح الإسلام المجال للمؤمنين لتأمّل السموات والأرض لبحث واكتشاف قوانينها، ويعني القرآن بهذا «حق المعرفة».

وتتضمن قوانين الشريعة الإسلامية أيضاً تدابير احتياطية أخرى لا تُعد ولا تُحصى لحماية حقوق الإنسان، والتي سيكون من الصعب تعدادها بالتفصيل. وهي إجمالاً تتعامل بطريقة شاملة مع حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من أكثر النواحي نبلاً، حيث أن الإسلام لم يميز بين إنسان وآخر. وكان الإمام علي (عليه السلام) هو القدوة والمرشد في الحفاظ والتأكيد على مبادىء حقوق الإنسان.

إن كل إنسان يتفق معي بأنه من الصعب شرح الصفات والميزات الفريدة للإمام علي(ع) بشكل كامل، يكفي أن نعرف بأن النبي المقدس(ص) سمّاه «بوابة العلم والمعرفة». لقد كان أعلم الناس، وأشجعهم، وأكثرهم فصاحة.. لقد كان تابعاً مخلصاً، دقيقاً للإسلام..

إن تقوى الإمام(ع) وحبه لله وإخلاصه في اتباع الشريعة كانت على درجة غاية في الرفعة.. لقد كان أفضل القضاة، ولم يكن يخش في الله أحد.

كان الإمام(ع) مقاتلاً عظيماً، ونحن نعلم بأن المحاربين الشجعان يكونون دائماً قساة القلوب، متوحشين ومتعطشين لإراقة الدماء، أما الإمام علي(ع) فهو ـ على النقيض من ذلك ـ كان إنساناً عاطفياً، حساساً ودوداً، لطيف المعشر.

لقد كان في قلب الإمام(ع) موقع خاص حنون للفقراء والمساكين واليتامى والمُقعدين.. لقد كان بالنسبة لهم صديقاً حنوناً، وقائداً عاطفياً، ورفيقاً في المعاناة. لقد كان نصيراً للجميع.. في الواقع خاطب الإمام(ع) المؤمنين في بداية خلافته:

«إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بيَّن فيه الخير والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدِفوا عن سمتِ الشر تقصدوا. الفرائض.. الفرائض أدّوها إلى الله تؤدِّكم إلى الجنة. إن الله حرم حراماً غير مجهول وأحل حلالاً غير مدخول وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها. وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحلّ أذى المسلم إلا بما يجب. بادروا أمرَ العامّة وخاصّةَ أحدِكم وهو الموت فإن الناس أمامكم وإن الساعة تحدوكم من خلفكم. تخفَّفوا تلحقوا فإنما يُنتظر بأوّلكم آخرُكم. اتّقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم..»* نهج البلاغة.

إن تغيّر الزمن، وتغيّر الظروف، لم يحدث تغيراً في شخصية الإمام(ع) وصفاته وقدرته على الاحتمال.. وبكل صدق وإخلاص كان الإمام (عليه السلام) إنساناً نبيلاً، مستقيماً، ومتسامحاً.

هنالك الكثير من الحوادث التي تظهر شخصيته النبيلة، واحترامه لحقوق الإنسان، ونذكر هنا بعض الحقائق التاريخية:

في معركة (صفين) وصل معاوية إلى نهر الفرات قبل جيش الإمام علي(ع)، واستولى على الماء، وعندما وصل جيش الإمام علي بن أبي طالب«عليه السلام»، أُبلغ بأنه لن يُسمح لهم بقطرة من ماء النهر فأرسل الإمام علي(ع) رسولاً إلى معاوية وقال له بأن هذا العمل مخالف لمبادىء الإنسانية وأوامر الإسلام. وكان جواب معاوية: «الحرب هي الحرب، وفي هذه الحالة لا يستطيع المرء أن يقبل مبادىء الإنسانية وعقائد الإسلام. إن هدفي الوحيد هو قتل علي(ع) وإضعاف معنويات جيشه، ومنع الماء سيجلب هذه النتائج بسهولة وسرعة». وعندئذ هاجم جيش الإمام علي(ع) واستولى على الماء، وجاء دور معاوية لطلب السماح له

بالحصول على الماء من النهر. ووصل رسل معاوية فأخبرهم أمير المؤمنين(ع) بأنهم يستطيعون أخذ الماء كما يريدون وكما يحتاجون. وعندما أخبره أصحابه بأن هؤلاء هم أولئك الذين منعوا عنهم الماء، وحاولوا إقناعه بمنع الماء عنهم، أجابهم الإمام عليه السلام: «خلّوا بينهم وبين الماء.. لا أفعل أبداً ما فعله الجاهلون».

ومرة أخرى في معركة الجمل، وفي غمرة الصدام، أحضر خادمه قنبر (رض) شراباً عذباً لينعش نفسه، فرفض الإمام(ع) تناول هذا الشراب، وطلب من قنبر(رض) أن يأخذ بضعة رجال معه، ليقدموا شربة باردة لكل واحد من الجرحى، فأجاب قنبر: سيدي.. إنهم من أعدائنا فكان رد الإمام عليه السلام: ربما كانوا كذلك، لكنهم بشر فاعتنِ بهم..

كتب الإمام (عليه السلام) ذات مرة إلى واليه عبد الله بن عباس (رض)، حول مجموعة من الرعايا غير المسلمين اشتكوا من معاملته القاسية:

«أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غِلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة، ونظرت فلم أرهم أهلاً لأن يُدنَوا لشركهم، ولا أن يُقصَوا ويُجفَوا لعهدهم، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم بين القسوة والرأفة وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء إن شاء الله».

يريد الإمام(ع) من الإنسان أن يكون شريفاً ومخلصاً ومجتهداً، وفي إحدى رسائله يوصي الإمام(ع): «لا تكن عبدَ غيرك وقد جعلك الله حراً..

ولا ترغبنّ فيمن زهد عنك..

عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شرّه بالإنعام عليه..

احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك..

احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصّلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل. وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه على العذر، حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك، وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله بغير أهله..».

في الحقيقة، كان الإمام(ع) يعامل أصحابه بمنتهى اللطف والعدل.. كان يعامل

الجميع بنفس الطريقة وبدون أي تمييز بين شخص وآخر.

لقد وضع الإمام(ع) مجموعة من القوانين الهامة لولاته وقادة جنده، وهي تعطي فكرة واضحة عن مفهومه لحقوق الإنسان، وأبرز مثال على تعاليم الإسلام الصريحة والضمنية فيما يتعلق بحقوق الإنسان في المجتمع هو عهد الإمام علي(ع) لمالك الأشتر (رض).

إن المبادىء الأساسية المختارة في هذا العهد هي التالية:

١ ـ «أشعِر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخَلق. . . فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. .».

٢ ـ يجب معاملة المسلمين وغير المسلمين بشكل متماثل: «فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخَلق».

٣ ـ «. . لا تندمنّ على عفو، ولا تبجحنّ بعقوبة، ولا تسرعنّ إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولنّ إني مؤمَّر فأُطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين وتقرّب من الغير. .».

٤ ـ «. . أنصفِ الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إلّا تفعل تظلِم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. .».

٥ ـ «إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكوننَّ لك بطانة فإنهم أعوان الأثَمة وإخوان الظَّلَمة. .».

٦ ـ اختَر من العمال من كان أميناً مخلصاً حيث أن «. . أولئك أخفّ عليك مؤونة، وأحسن لك بعونة، وأحنى عليك عِطفاً وأقلّ لغيرك إلفاً. . . ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمرّ الحق لك، وأقلّهم مساعدة فيمايكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً من هواك حيث وقع. .».

٧ ـ اختر عمالك وفق الاختبار والتجربة «ثم انظُر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولِّهم محاباة وأثَرَة».

٨ ـ أكثِر العطاء لعمالك بما يصلح أنفسهم. «. . ثم أسبِغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلَموا أمانتك. . ».

٩ ـ واختَر من تثق به لمراقبتهم: «. . ثم تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم. . ».

١٠ ـ يجب أن يكون وزراؤك وعمالك من صفوة الناس «. . ثم اختَر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نَفسك ممّن تضيق به الأمور، ولا تُمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة. . . ثم انظر في حال كتّابك فولِّ على أمورك خيرهم. . ».

١١ ـ أحسِن إلى رعيتك، ولا تحتجب عنهم «. . واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حُسن ظنّ راعٍ برعيته من إحسانه إليهم. . . وأمابعد فلا تطوِّلنَّ احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور. . ».

١٢ ـ لا تُخلف عهداً، ولا تنقض معاهدة. . «. . فحُط عهدك بالوفاء، وارعَ ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنَّة دون ما أعطيت. . فلا تغدرنَّ بذمتك، ولا تخيسنَّ بعهدك، ولا تختلنّ عدوك. . ».

١٣ ـ يجب أن تعتني بالتجار، ولكن امنع الاحتكار والاستغلال «. . ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات، وأوصِ بهم خيراً. . . واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحّاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكّماً في البياعات، وذلك باب مضرّة للعامة وعيب على الولاة. فامنع من الاحتكار. . ».

١٤ ـ العناية بالفقراء واليتامى والمساكين. . «. . ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزَّمنى فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم. . . فلا تُشخص همك عنهم، ولا تصعِّر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقِره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم. . ».

١٥ ـ تجنّب سفك الدماء وقتل العَمد «إياك والدماء وسفكها بغير حلّها فإنه ليس شيء

أدنى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة. . . ولا عُذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قَوَدَ البدن. . ».

١٦ ـ لا تبدأ بالحرب أبداً لأن الله لا يحب إراقة الدماء. . «ولا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليغفل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن. . ».

والحمد لله رب العالمين

تعريب: سفير حبيب

---

* ـ الشواهد من كلام الإمام علي«ع» وُضِعت كما هي في النصوص الأصلية العربية «المعرّب».